Ne soyez pas mechant.
Méchant?
moquez pas d'elle
ile, très en cha

الدرس

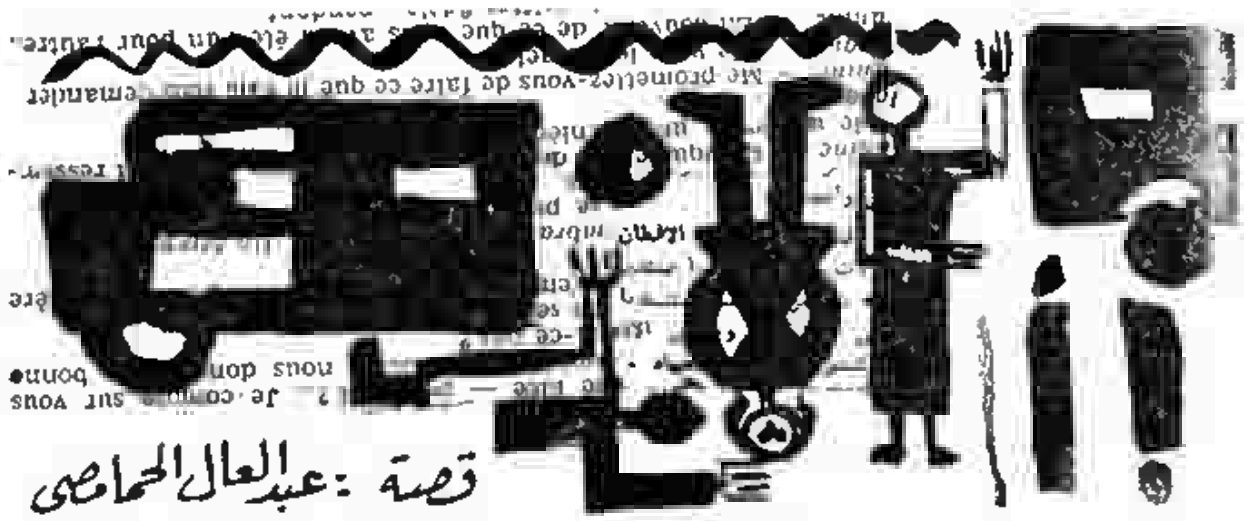

قصة : عبد العال الحمامصى

يدى تقرع الباب ومعاصلى سائبة ·
لا أحد يرد · لا يجيبنى من الداخل غير الصمت . القلق يسود أعصابى ..
ودقات يدى تتوالى ملتاثة · ولا شىء غير الصمت ! هواجس مكروبة تراودنى وان كنت لم افقدالأمل تماما فى وجوده ·· اليوم الجمعة · أجازة · ربما يكون ثقيل النوم · ! وتزايدت دقات يدى عنفا ·· لم أكف الا عندما خرجت المرأة البدينة من الغرفة المجاورة تحمل فوق صدرها رضيعا يمتص ثديها من فتحة جانبية فى ثوبها · نظراتها تقذف شواظ الغضب وهى تخاطبنى بلهجة حانقة ·

ـ « لك ساعة تقرع الباب يا أستاذ ·· لو كان بالداخل أموات لقاموا ·· محمود جاءته برقية من الصعيد . وخرج مبكرا . مات عمه »

عامت الدنيا أمامى ·· مات عمه ! رددتها مذهولا ·· كيف أيتها البومة · ابعدى نظراتك عنى ·· ابعديها · سأخرج · واتجهت نحو الباب وأنا أشعر بنظراتها تخرق ظهرى ·· دوامة من المشاعر اللاهثة تمور فى داخلى · تفكيرى عاجز عن الامساك باى خيط يوصلنى لمعالجة المشكلة ·· البلادة ترين فوق ذهنى · لا شىء غير الاحساس بالضياع ·· منك لله يا أبى · منك لله · كيف طاوعك ضميرك على أن تتزوج فى شيخوختك لتنجب للعالم كتاكيت ·· يقعدك عجز الشيخوخة قبل أن تصنع لها أحنجة !

ماذا أفعل الآن ؟ الاعياء يسرى فى كيانى · لا أستطيع المسير · لا أستطيع بصيت كل حيوية فى جسدى . خطواتى المجهدة أدفعها بعذاب · وبين كل خطوة والأخرى يوشك قلبى أن يصمت نبضه عندما وصلت « **ميدان الجيزة** » كنت قد استهلكت كل قواى ·· لا قدرة لى على دفع خطواتى ·· لا بد أن أركب عربة ·· لا بد · ولكن من أين لى ثمن التذكرة ؟! لماذا اليوم بالذات يموت عمك يا محمود ؟!

وصاحب اللوكاندة .. كيف سأواجه صفاقة تهـديده .. الحمد لله . وجدت فكرة . تذكرت اليوم الجمعة «الصعايدة» يصلونها عالما في مسجد الحسين .. لن أعدم هناك بعض أبناء بلدتي . قطعا ستدفعهم نخوتهم لاقراضي نقودا أسدد بها حساب اللوكاندة . وابتاع تذكرة أعود بها الى مدينتي .. لن أمكث هنا أبدا .. خدعت في القاهرة .. خاب أملي .. انها مدينة مات قلبها .. قد تكون بلدتي الصغيرة كئيبة بأحزانها وتعاستها . ولكن قلوب الناس فيها تنبض بعواطف المحبة تملك أن تعطي حرارة المشاركة لا يشعر الانسان فيها بصقيع الوحدة . هنا أشعر بأني مجرد حشرة .. سأعود الى مدينتي .. المهم أن أركب الآن .. وخطرت لي من خلال الاعياء فكرة .. سأنتقي عربة مزدحمة بالركاب حتى الممكن من « الزوغان » بينهم .. لا بد أن أصل قبل خروج الصلاة !

لا بد أن أصل قبل خروج الصلاة !

عديد العربات العامة مرت أمامي . وأنا أقاوم ترددي . وأحاول اسكات عواء ضميري . ستكون فضيحة . لو اكتشف الكمساري فعلتي .. وتحاملت على نفسي أحاول المسير ولكني توقفت من جديد أسند قلبي .. لا جدوى . دست على كل الاعتبارات ثم دلفت داخل احدى العربات من باب الدرجة الاولى .. لم أكن « فقريا وابن حظ » ! الكمساري يقف بقرب باب الدرجة الثانية . يقطع تذاكر ركاب المؤخرة .. وتواريت خلف أكتاف الركاب وأنا أنقل خطواتي الى الدرجة الثانية .. ليس في هيئتي ما يجعلني أجسر على الوقوف بالدرجة الأولى .. ربما يرتاب الكمساري في أمري .. انحشرت بين الواقفين الذين يكتظ بهم ممر « الدرجة الثانية » . بعد أن تأكدت من وجود التذاكر بين أصابع الذين وقفت بجوارهم !

وأخذ الكمساري ينقل خطواته بين الأجساد المتلاصقة الى أن وصل عندي وهو « ينقر » بقلمه فوق خشبة التذاكر ويردد كلماته الروتينية « **تذاكر ...** يا حضرات .. تذاكر » واتخذت وضع من لا تعنيه الكلمات . ودقات قلبي تتعالى مهمولة بالخوف . ومن خلف ظهري جاءتني كلماته بعد أن نقر بالقلم فوق الخشبة « **السيد .. خلاص .. هنا ؟** أحسست بنقرته فوق قلبي ! لا أدري كيف سيطرت على أعصابي . وان كنت لم أستطع التفوه بالاجابة مباشرة .. مكتفيا بايماءة من رأسي تعني الموافقة . ثم استدرت عنه سريعا حتى لا يقرأ الكذب في نظراتي !

وزحف الى الدرجة الأولى .. الحمد لله . ها قد انتهيت من الكمساري . قرأت الفاتحة للحسين .. والسيدة زينب . وكذلك الشيخ القرني ولي الله في بلدتنا ! بقيت مسألة المفتش .. بسيطة يمكن التغلب عليها .. المفتش يدخل عالما من باب الدرجة الأولى .. عندما أراه سأبادر بالهبوط .. وظلت نظراتي من بين أكتاف الركاب عالقة بمدخل الدرجة الأولى أترصد دخول سيادته عند كل محطة تقف العربة بها !!

لا زال ضميري يعوي . لا يريد أن يخرس . فمجرد خطيئة صغيرة .. للضرورة أحكامها !

ولبثت أحاول أن أتخلص من عوائه . ومن كل المشاعر المتشابكة التي تجرفني بشأن أزمتي حتى أركز كل حواسي في

الانتباه لحركة الدخول فى الدرجة الأولى .. رغم هذا كنت أتوه بلا وعى لأجد دوامة الأزمة قد جرفتنى !

بالأمس كانت نقودى قد نفدت تماما وخرجت الى الشارع بدون كوب الشاى بالحليب الذى تعودت أن أغير به ريقى كل صباح .. بعد أن هددنى صاحب « **لوكاندة المنتزة الحسينى** » بأن يقذف بى الى الشارع اذا لم أبادر بدفع حسابه طرفى .. اقسم بمقام الحسين أن يسلمنى للبوليس اذا لم تف ملابس حسابه .. فليست لوكاندته مأوى لكل صعلوك متشرد يقذف به الى المدينة قرف الصعيد . خرجت والدنيا أمامى يكتنفها الضباب .. أعرف أن الرجل لن يتردد فى تنفيذ وعيده .. ليس هناك ما يمنعه من أن يفعل .. بعد الأسابيع التى قضيتها فى هذه المدينة لن استغرب أى تصرف يحدث فيها .. رأيت بعينى رجلا رفض أن يتخلى عن صحيفته لتغطى بها عورة جثة !!

وفى ميدان الأزهر قابلت محمود عبد الحق . الطالب بكلية الحقوق جارنا وزميل فى مدرسة اخميم الابتدائية .. كنت وقتها الغريق . وكان هو القشة ! ..

ما أن تصافحنا وتعانقنا . وسألنى عن سبب مجيئى من الصعيد حتى انطلقت أحكى له القصة بحذافيرها . جئت لأبحث عن عمل هنا . استعنت « دائرة شيرين » عن خدمات أبى بعد ما تدهورت صحته نهائيا . وهذا ما جعلنى انقطع عن مواصلة تعليمى لأعطى الفرصة لبقية اخوتى .. لم أجد فى الصعيد عملا . فاعطانى عضو مجلس الشيوخ عن مدينتنا خطاب توصية لقريب له صاحب نفوذ هنا ليجد لى عملا فى واحدة من الشركات التى يهيمن عليها .. ومضت ستة أسابيع وأنا أتردد على مكتب صاحب النفوذ .. فى كل مرة أقف أمامه متحاذلا مستكينا الى أن ينتهى من مكالماته « **التليفونية** » المتواصلة .. وعندما يتنبه الى وجودى أمامه يتندر بى بالعبارات التى تعودت سماعها فى كل مرة .. « **هانت ذا ترى فرط انشغالى .. لكنى مازلت مهتما بموضوعك .. حاول أن تمر على بعد اسبوع ! » حتى تبخر تماما** كل ما استدانته لى أمى من أبناء وبنات الحلال .. وليس لى أقرباء هنا ! وأبدى محمود تأثره لكل هذا .. ثم أعرب عن أسفه لكونه لا يستطيع الآن معاونتى . لأنه لا يحمل نقودا تزيد كثيرا عن نفقات المواصلات .. وأدخل يده فى جيبه وأخرجها ببضعة قروش احتجز منها أجرة العودة وأعطانى الأربعة قروش المتبقية . وعنوانه فى « الجيزة » لأذهب اليه صباحا عساه يستطيع أن يدبر لى نقودا الى أن تصلنى المعونة التى طلبتها بخطاب من أمى .. ثم صافحنى بحرارة وركب الترام !

وتعشيت بقرشين . وشربت كوبا من الشاى بقرش واستبقيت قرشا لأركب به الترام صباحا من العتبة «الى الجيزة». وها قد مات عمه .. ! منك لله يا أبى .. لماذا أنجبتنى للعالم .. اية ضرورة دعتك لأن تفعل ! والرجل صاحب النفوذ .. آخر مرة . تمنيت بعذاب عيظى أن افقأ « كرشه » الممتد لعدة امتار أمامه ! . مشغول . وأنا .. هل قيل له أننى حجزت جناحا لسيادتى فى « شبرد » ؟ ما شأن صاحب لوكاندة المنتزة الحسينى بانشغالك .. ومحمود عبد الحق .. أكان من الحتم أن يموت

عمه · اليوم بالذات · ماذا أفعل لو فشلت فى العثور على تاس من بلدى بعد صلاة الجمعة ؟!

كان هذا السؤال مختلطا بدوامة الأزمة قد سيطر على كل وجودى . حتى أننى نسيت مدخل الدرجة الاولى. بل نسيت أننى فى عربة تماما · الى أن فوجئت بالمفتش أمامى وجها لوجه !

عندما مد لى يده ليفحص التذكرة تمنيت لو أن تنشق الأرض وتبتلعنى. ولم تنشق الأرض . بينما يد المفتش مازالت ممتدة نحوى !

كنت رئيسا لفريق التمثيل فى المدرسة الثانوية · فاستنجدت بخبرتى ·· بسرعة اندفعت يدى تقلب جيوبى بحثا عن التذكرة الوهمية ·· وأناأتصنع الدهشة · ونظراتى تحترق الأرض بحثا عنها. ونظرات المفتش التى فقد صبرها مسلطة على · ناطقة بالريبة · وتوشك أن تلفظ الاتهام !

قلت ويدى تعبث بكل جيوبى وأنا أتحاشى نظراته ·

« يبدو أن التذكرة ·· ضاعت ! ومن جديد اندفعت نظراتى تتجول بين أقدام الركاب ·· هـا قد وقع المحظور ·· انطلق ضميرى يعوى ·· وقع المحظور · حاولت أن أعود ماشيا ·· لم أستطع· كنت سألفظ روحى قبل أن أصل · وربما تدهمنى عربة · وتتركنى أتخبط فى دمائى على قارعة الطريق · أموت قتيلا فى مدينة لن يهتم تاسها حتى بأن يضعوا جثتى تحت جدار ·· سيلقى كل عابر نظرة . ثم يواصل مسيره .. رأيت هذا المنظر عدة مرات · منذ أيام رفض أحد المارة أن يعطى الصحيفة

التي بيده لامرأة طلبتها منه لتعطى بها جثة بائع الحلوى العجوز الذى صرعته عربة الترام فى ميدان الأزهر ·· لو عدت ماشيا ما كنت سألحق خروج صلاة الجمعة ·· !

ابعد نظراتك يا سيدى المفتش .. انها تعريتى من ثيابى ·· تعذب آدميتى ابعدها !

ـ « **اهى « ابرة » يا أستاذ ·· كفى** تمثيلا ! » ثم أردف يخاطب الكمسارى »

ـ « **شوف المحترم يا على ·· اعط له** تذكرة · » قالها مفعمة بالاحتقـــار ومتصممة تأنيبا للكمســـارى فى نفس الوقت · ثم انتقل الى غيرى وهو يغمغم بكلمات عاقتنى الدوامة عن سماعها ·

وتقصد العرق من جبينى « كبرميل» زيت تخترقه النقوب فى هجير الشمس والخجل يسحقنى وكل النظرات كأنها قوهات بنادق مصوبة نحوى · لم ارتكب جريمة أيها الناس · « **دائرة شـــرين** » فصلت أبى ·· مريض أنا ولا نقود معى ·· لا بد أن أصل الحسين قبل خروج الصـــــلاة لماذا كل هذا الاحتقـار فى عيونكم لى ؟!

وجاء الكمسارى يقيستى طولاوعرضا بنظراته الشامتة وهو يثقب بكلمـاته مشاعرى :

ـ « **يا ناس ·· حرام عليكم · لحسن ورانا عيالنـــا ·· الا يكفينا غلبنا طول اليوم ·· هات · يا أستاذ · هات ! » ·**

وراءك عيال ·· أعرف ولكن لماذا كل

هـذه الصـفيحة فى نظراتك . كأنمـا أمسكت بقائل أبيك · أحرس الارتباك لسانى · وراسى منكس الى الأرض حتى لا أواجه نظراته وعيـون الركاب التى تنتظر النتيجة فى شراهة الفضول ! ·· من حديد امتدت يدى تفتش كل جيوبى ثم أخرجتها خاوية · ترتعش ··الكلمات تبكى فى حلقى ·

ـ « بشرفى قطعت تذكرة ·· لكن أين راحت ·· لا أدرى · سقطت منى· ربما بين الزحام » ·

وعادت نظراتى تتلفت تحت المقاعد وبين أقدام الركاب · بدون أن أجـد حتى تذكرة قديمة ! ·

الرجل مازال واقفا أمامى يحـدق فى بنظرات متحـدية .. أخـيرا نفـذ صبره ·· » « **خلصـنا يا حضرة** » · عيون الناس كلهـا متجهة نحوى .. وفتاة صغيرة تهمس فى أذن السـيدة الجالسة بجوارها نظرات الرثاء فى عينيها تمزق كبـدى ·· وجدت الكلمـات بصعوبة ·

ـ « يبدو أننى نسيت حافظتى فى البيت ·· انزلنى لو سمحت » ما أن قلتها حتى تلقفتها قهقهة الكمسـارى صاخبة عربيدة ترج قلبى ·

ـ « أهلا ·· وسلا · نسيت الحافظة فى البيت · وبها « دفتر الشيكات » طبعا هـدى، يا أسطى ابراهيم لينزل الأستاذ بسلامته ·· عربته الخاصـة وصلت ! « أفندية » آخر زمن · جاكم القرف ·· الى البـاب يا أسـتاذ قدامى !! ··

وجذبنى من ياقة القميص يسـوقنى تجاه الباب ·· وتناهى الى صوت أحد ركـاب الدرجـة الاولى ورائى ·· « تشال ركب يخرب بيوت الناس ! ». لم أسمع بقية التعليقات . فقد دفعنى الكمسارى الى الخارج متكفئا على وجهى قبـل أن تتوقف العربة تمـاما .. ونهضت أنفض التراب عن ثيابى والاعياء يشدنى نحو الأرض من جديد ·· الدنيا تسود أمامى ·· قلبى · قوة ما تستله · تهرسه ·· الدنيا تدور ·· دماغى تدور أمى ·· أبى ·· الصعيد · صـاحب الوكالـة ·· محمـود عبد الحق ·· التذكرة ·· دائرة شـيرين باشا ·· المرئيات تختلط أمامى ·· تتداخل فى بعضها ·· وأنا ازحف بحور واعيـاء نحو الجدار القريب لأسـتند عليه ·· ريثما أسترد أنفاسى !! ·

عبد العال الحمامصى

نقد: د. محمد غنيمي هلال